

التحرير والتنوير

فجمله (إن اﻟﻌﻨﺪ ﻋﻨﺪﻩ ﻋﻠﻢ ﺍﻟﺴﺎﻋﺔ) ﻣﺴﺘﺌﻨﺎﻓﺎ ﺑﻴﺎﻧﻴﺎ ﻟﻮﻗﻮﻋﻬﺎ ﺟﻮﺍﺑﺎ ﻋﻦ ﺳﺆﺍﻝ ﻣﻘﺪﺭ ﻓﻲ ﻧﻔﻮﺱ ﺍﻟﻨﺎﺱ . ﻭﺍﻟﺠﻤﻞ ﺍﻻﺭﺑﻊ ﺍﻟﺘﻲ ﺑﻌﺪﻫﺎ ﺇﺩﻣﺎﺝ ﻟﺠﻤﻊ ﻧﻈﺎﺋﺮﻫﺎ ﺗﻌﻠﻴﻤﺎ ﻟﻼﻣﺔ . ﻭﻗﺎﻝ ﺍﻟﻮﺍﺣﺪﻯ ﻭﺍﻟﺒﻐﻮﻱ : ﺇﻥ ﺭﺟﻼ ﻣﻦ ﻣﺤﺎﺭﺏ ﺣﺼﻔﺔ ﻣﻦ ﺃﻫﻞ ﺍﻟﺒﺎﺩﻳﺔ ﺳﻤﺎﻩ ﻓﻲ ﺍﻟﻜﺸﺎﻑ ﺍﻟﺤﺎﺭﺙ ﺑﻦ ﻋﻤﺮﻭ ﻭﻗﻊ ﻓﻲ ﺗﻔﺴﻴﺮ ﺍﻟﻘﺮﻃﺒﻲ ﻭﻓﻲ ﺃﺳﺒﺎﺏ ﺍﻟﻨﺰﻭﻝ ﻟﻠﻮﺍﺣﺪﻯ ﺗﺴﻤﻴﺘﻪ ﺍﻟﻮﺍﺭﺙ ﺑﻦ ﻋﻤﺮﻭ ﺑﻦ ﺣﺎﺭﺙﺔ ﺟﺎﺀ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻨﺒﻲ A ﻓﻘﺎﻝ : ﻣﺘﻰ ﺍﻟﺴﺎﻋﺔ ؟ ﻭﻗﺪ ﺃﺟﺪﻳﺖ ﺑﻼﺩﻧﺎ ﻓﻤﺘﻰ ﺗﺨﺼﺐ ؟ ﻭﺗﺮﻛﺖ ﺍﻣﺮﺃﺗﻲ ﺣﺒﻠﻰ ﻓﻤﺎ ﺗﻠﺪ ؟ ﻭﻣﺎﺫﺍ ﺍﻛﺴﺐ ﻏﺪﺍ ؟ ﻭﺑﺄﻱ ﺃﺭﻃﺂ ﻣﻮﺕ ﻓﻨﺰﻟﺖ ﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﻭﻻ ﻳﺪﺭﻯ ﺳﻨﺪ ﻫﺬﺍ . ﻭﻧﺴﺐ ﺇﻟﻰ ﻋﻜﺮﻣﺔ ﻭﻣﻘﺎﺗﻞ ﻭﻟﻮ ﺻﺢ ﻟﻢ ﻳﻜﻦ ﻣﻨﺎﻓﻴﺎ ﻟﻌﺘﺒﺎﺭ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺠﻤﻠﺔ ﺍﺳﺘﺌﻨﺎﻓﺎ ﺑﻴﺎﻧﻴﺎ ﻓﺈﻧﻪ ﻣﻘﺘﻀﻰ ﺍﻟﺴﻴﺎﻕ .

ﻭﻗﺪ ﺃﻓﺎﺩ ﺍﻟﺘﺄﻛﻴﺪ ﺑﺤﺮﻑ (ﺇﻥ) ﺗﺤﻘﻴﻖ ﻋﻠﻢ اﻟﻌﻨﺪ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺑﻮﻗﺖ ﺍﻟﺴﺎﻋﺔ ﻭﺫﻟﻚ ﻳﺘﻀﻤﻦ ﺗﺄﻛﻴﺪ ﻭﻗﻮﻋﻬﺎ . ﻭﻓﻲ ﻛﻠﻤﺔ (ﻋﻨﺪﻩ) ﺇﺷﺎﺭﺔ ﺇﻟﻰ ﺍﺧﺘﺼﺎﺹﻩ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺑﺫﻟﻚ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﻟﺄﻥ ﺍﻟﻌﻨﺪﻳﺔ ﺷﺄﻧﻬﺎ ﺍﻻﺳﺘﺌﺌﺎﺭ . ﻭﺗﻘﺪﻳﻢ (ﻋﻨﺪ) ﻭﻫﻮ ﻇﺮﻑ ﻣﺴﻨﺪ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﺴﻨﺪ ﺇﻟﻴﻪ ﻳﻔﻴﺪ ﺍﻟﺘﺨﺼﺺ ﺑﺎﻟﻘﺮﻳﻨﺔ ﺍﻟﺪﺍﻟﺔ ﻋﻠﻰ ﺃﻧﻪ ﻟﻴﺲ ﻣﺮﺍﺩ ﺑﻪ ﻣﺠﺮﺩ ﺍﻟﺘﻘﻮﻱ .

ﻭﺟﻤﻠﺔ (ﻭﻳﻨﺰﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ) ﻋﻄﻒ ﻋﻠﻰ ﺟﻤﻠﺔ ﺍﻟﺨﺒﺮ . ﻭﺍﻟﺘﻘﺪﻳﺮ : ﻭﺇﻥ اﻟﻌﻨﺪ ﻳﻨﺰﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﻓﻴﻔﻴﺪ ﺍﻟﺘﺨﺼﻴﺺ ﺑﺘﻨﺰﻳﻞ ﺍﻟﻐﻴﺚ . ﻭﺍﻟﻤﻘﺴﻮﺩ ﺃﻳﺸﺎ ﻋﻨﺪﻩ ﻋﻠﻢ ﻭﻗﺖ ﻧﺰﻭﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﻭﻟﻴﺲ ﺍﻟﻤﻘﺴﻮﺩ ﻣﺠﺮﺩ ﺍﻟﺒﺨﺎﺭ ﺑﺄﻧﻪ ﻳﻨﺰﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﻟﺄﻥ ﺫﻟﻚ ﻟﻴﺲ ﻣﻤﺎ ﻳﻨﻜﺮﻭﻧﻪ ﻭﻟﻜﻦ ﻧﻄﻤﺖ ﺍﻟﺠﻤﻠﺔ ﺑﺄﺳﻠﻮﺏ ﺍﻟﻔﻌﻞ ﺍﻟﻤﻀﺎﺭﻉ ﻟﻴﺤﺼﻞ ﻣﻊ ﺍﻟﺪﺍﻟﺔ ﻋﻠﻰ ﺍﻻﺳﺘﺌﺌﺎﺭ ﺑﺎﻟﻌﻠﻢ ﺑﻪ ﺍﻻﻣﺘﻨﺎﻥ ﺑﺫﻟﻚ ﺍﻟﻤﻌﻠﻮﻡ ﺍﻟﺬﻯ ﻫﻮ ﻧﻌﻤﺔ . ﻭﻓﻲ ﺍﺧﺘﻴﺎﺭ ﺍﻟﻔﻌﻞ ﺍﻟﻤﻀﺎﺭﻉ ﺇﻓﺎﺩﺔ ﺃﻧﻪ ﻳﺠﺪﺩ ﺇﻧﺰﺍﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﺍﻟﻤﺮﺓ ﺑﻌﺪ ﺍﻟﻤﺮﺓ ﻋﻨﺪ ﺍﺣﺘﻴﺎﺝ ﺍﻟﺄﺭﻃﺂ . ﻭﻻ ﺍﻟﺘﻔﺎﺕ ﺇﻟﻰ ﻣﻦ ﻗﺪﺭﻭﺍ : ﻳﻨﺰﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﺑﺘﻘﺪﻳﺮ " ﺃﻥ " ﺍﻟﻤﺼﺪﺭﻳﺔ ﻋﻠﻰ ﻃﺮﻳﻘﺔ ﻗﻮﻝ ﻃﺮﻓﺔ : .

" ﺃﻻ ﺃﺑﻬﺬﺍ ﺍﻟﺰﺍﺟﺮﻯ ﺍﺣﺰﺭ ﺍﻟﻮﻏﻰ ﻟﻠﺒﻮﻥ ﺑﻴﻦ ﺍﻟﻤﻘﺎﻣﻴﻦ ﻭﺗﻔﺎﻭﺕ ﺍﻟﺪﺭﺟﺘﻴﻦ ﻓﻲ ﺍﻟﺒﻼﻏﺔ . ﻭﺇﺫ ﻗﺪ ﺟﺎﺀ ﻫﺬﺍ ﻧﺴﻘﺎ ﻓﻲ ﻋﺪﺍﺩ ﺍﻟﺤﺼﺮ ﻛﺎﻥ ﺍﻟﺒﺘﻴﺎﻥ ﺑﺎﻟﻤﺴﻨﺪ ﻓﻌﻼ ﺧﺒﺮﺍ ﻋﻦ ﻣﺴﻨﺪ ﺇﻟﻴﻪ ﻣﻘﺪﻡ ﻣﻔﻴﺪﺍ ﻟﻼﺧﺘﺼﺎﺱ ﺑﺎﻟﻘﺮﻳﻨﺔ ؛ ﻓﺎﻟﻤﻌﻨﻰ : ﻭﻳﻨﻔﺮﺩ ﺑﻌﻠﻢ ﻭﻗﺖ ﻧﺰﻭﻝ ﺍﻟﻐﻴﺚ ﻣﻦ ﻗﺮﺏ ﻭﺑﻌﺪ ﻭﺿﺒﺖ ﻭﻗﺖ . ﻭﻣﻀﻐﺔ ﻭﻋﻠﻘﺔ ﻧﻄﻔﺔ ﻣﻦ ﺃﻃﻮﺍﺭﻩ ﺟﻤﻴﻊ ﺑﻌﻠﻢ ﻳﻨﻔﺮﺩ ﺃﻱ (ﺍﻻﺭﺣﺎﻡ ﻓﻲ ﻣﺎ ﻭﻳﻌﻠﻢ) ﻋﻠﻴﻪ ﻭﻋﻄﻒ A E ﺗﻢ ﻣﻦ ﻛﻮﻧﻪ ﺫﻛﺮﺍ ﺃﻭ ﺃﻧﺜﻰ ﻭﺇﺑﺎﻥ ﻭﺿﻌﻪ ﺑﺎﻟﺘﺪﻗﻴﻖ . ﻭﺟﻴﺀ ﺑﺎﻟﻤﻀﺎﺭﻉ ﻟﺇﻓﺎﺩﺔ ﺗﻜﺮﺭ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﺑﺘﺒﺪﻝ ﺗﻠﻚ ﺍﻟﺄﻃﻮﺍﺭ ﻭﺍﻻﺣﻮﺍﻝ . ﻭﺍﻟﻤﻌﻨﻰ : ﻳﻨﻔﺮﺩ ﺑﻌﻠﻢ ﺟﻤﻴﻊ ﺗﻠﻚ ﺍﻟﺄﻃﻮﺍﺭ ﺍﻟﺘﻲ ﻻ ﻳﻌﻠﻤﻬﺎ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻟﺄﻧﻪ ﻋﻄﻒ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﻗﺼﺪ ﻣﻨﻪ ﺍﻟﺤﺼﺮ ﻓﻜﺎﻥ ﺍﻟﻤﺴﻨﺪ ﺍﻟﻔﻌﻠﻲ ﺍﻟﻤﺘﺄﺧﺮ ﻋﻦ ﺍﻟﻤﺴﻨﺪ ﺇﻟﻴﻪ ﻣﻔﻴﺪﺍ ﻟﻼﺧﺘﺼﺎﺱ ﺑﺎﻟﻘﺮﻳﻨﺔ ﻛﻤﺎ ﻗﻠﻨﺎ ﻓﻲ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻭﺍﻟﻠﻴﻞ ﻭﺍﻟﻨﻬﺎﺭ) .

وأما قوله (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت) فقد نسج على منوال آخر من النظم فجعل سداه نفي علم أية نفس بأخص أحوالها وهو حال اكتسابها القريب منها في اليوم الموالي يوم تأملها ونظرها وكذلك مكان انقضاء حياتها للنداء عليهم بقله علمهم ؛ فإذا كانوا بهذه المثابة في قلة العلم فكيف يتطلعون إلى علم أعظم حوادث هذا العالم وهو حادث فنائه وانقراضه واعتياضه بعالم الخلود . وهذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلم بأي أرض تموت فيها كل نفس إلى الله تعالى فحصلت إفادة اختصاص الله تعالى بهذين العلمين فكانا في صميمة ما انتظم معهما مما تقدمهما .

وعبر في جانب نفي معرفة الناس بفعل الدراية لأن الدراية علم فيه معالجة للاطلاع على المعلوم ولذلك لا يعبر بالدراية عن علم الله تعالى فلا يقال : الله يدري كذا فيفيد : انتفاء علم الناس بعد الحرص على علمه . والمعنى : لا يعلم ذلك إلا الله تعالى بقرينة مقابلتهما بقوله (وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام) . وقد علق فعل الدراية عن العمل في مفعولين بوقوع الاستفهامين بعدهما أي ما تدري هذا السؤال أي جوابه . وقد حصل إفادة اختصاص الله تعالى بعلم هذه الأمور الخمسة بأفانين بديعة من أفانين الإيجاز البالغ حد الإعجاز .

ولقبت هذه الخمسة في كلام النبي A بمفاتيح الغيب وفسر بها قوله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال رسول الله A " مفاتيح الغيب خمس " ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية ومن حديث أبي هريرة " ... في خمس لا يعلمهن إلا الله إن الله عنده علم الساعة جوابا عن سؤال جبريل " متى الساعة ؟ ... " .